- recueil des notices et mémoires de la société archéologique. Histoire et géographie du département de Constantine (1869-1890).
- Revue Africaine (1856-1950).
- Revue d'histoire maghrebine (1974-1975).
- Les Gaulois (1871) A.N.P.
- La liberté (1871) A.N.P.

مقارنة بين تناول المؤرخين الفرنسيين لبعض قضايا تاريخ الجزائر وتاريخ المغرب الأقصى (الفترة المعاصرة)

محمد العربي معريش

إن الموضوع الذي وقع عليه اختيارنا عند اقتراح ملتقانا هذا عنوانه: «مقارنة بين تناول المؤرخين الفرنسيين لبعض قضايا تاريخ الجزائر وتاريخ المغرب الأقصى» (الفترة المعاصرة). وهو ربما يختلف عن سواه من المواضيع في كونه يتعدى – في أثناء تعرضه للجزائر – إلى المغرب الأقصى الذي تربطنا به روابط حضارية.

أما دواعي طرقنا لهذا الموضوع فهي كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

1) الخروج من تلك الدائرة الضيقة، والخاصة بنا، التي اعتدنا التحرك فيها مع أن ماضينا جزء من ماضي جيراننا وفي موضوع الكتابات الفرنسية بالذات، التي ليست ظاهرة خاصة بنا.

2) فهم النوايا الحقيقية للفرنسيين بالمقارنة والاستنتاج بحكم أن هذه الظاهرة نشأت عن تلك الاقلام الاستعمارية المتعاونة على هدم وتخريب شخصيتنا وتاريخنا المشترك.

3) كون الاستعمار واحدا مهما اختلفت الأسماء التي يمارس في ظلها، الحاقا كان أم حماية. فمن شأن هذه المقارنة أن توقفنا على حسن توظيف الاستعمار للأدوات المحققة لأغراضه وأطماعه، ومن هذه الأغراض الكتابة التاريخية التي تهدف الأقلا

الاستعمارية من ورائها الى تعقيد ابن المستعمرة واذلاله واشعاره بالنقص والمهانة فيقبل الواقع المفروض عليه ويجُد له مبررات فيخضع ويستسلم للغالب منفذا لأوامره ومنتهيا عند نواهيه ومعترفا «بفضله عليه».

4) التحسيس بضرورة اعادة النظر في تاريخنا وفي ميدان هذه الكتابات بالذات والتي ليست ظاهرة خاصة بنا ولكن يمكن تعميمها على باقي الشعوب الاسلامية وشعوب العالم الثالث ككل، الأمر الذي يجعلنا نفكر في تنسيق المواقف والجهود وتبادل التجارب والخبرات لتعديل هذه الرؤية وايقاف هذه الهجمة على تاريخنا والتي لا تزال قائمة الى اليوم.

ومن هنا، ينبغي التفكير في تعميم اعادة النظر في تاريخنا وترجمتها الى حركة يقوم بها مثقفو هذه الشعوب على غرار اتساع رقعة التجارب لحركة التحرير والتحرر بعد الحرب الثانية على سبيل المثال. لا بد اذن من القيام بعملية «تحرير تاريخنا» «Décoloniser notre Histoire» والاستفادة من تجارب بعضنا البعض على غرار استفادة الاستعمار نفسه من بعضه البعض أثناء الحركة التوسعية[1].

ان الاستعمار واحد مهما تعددت صوره وأشكاله والسلطة المنفذة له، فلماذا لا يتعاون مثقفو العالم الثالث على تحرير تاريخهم والدفاع عن شخصياتهم وقضاياهم العادلة، قضايا الانسانية جمعاء لكي تحيا عزيزة مكرمة؟

والحق أن عملية تحرير التاريخ عملية شاقة لأنها تتطلب كفاءات ذات قناعة وادراك عميق بخطورة المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتق هذا الجيل. وهي فضلا عن ذلك تقتضي المرور بمراحل. فأحداث هزة في الأوساط العلمية والثقافية للفت الانتباه الى ما كتب وسيكتب عنا أمر واجب في مثل هذه المناسبة، هذا من جهة ومن جهة ثانية فلا يمكن تصور أن الاستعمار سيسكت عن هذا المسعى ولا أن يقف مكتوف الأيدي ـ وهذا ما يحدث الآن ـ ولا عجب أن يجند أبناء المستعمرات أنفسهم لهذا الغرض.

ان ما نسمعه اليوم عن هذه الأقلام الفرنسية بالذات، أنها صارت تدعو معنا

(1) ج. أ.، هوبسن، **الامبريالية**، ترجمة عبد الكريم محمد، القاهرة، د.ت.، ص: 122.

الى ضرورة أخذ فكرة اعادة كتابة تاريخ هذه المنطقة بعين الاعتبار، ولا تتوقف كعادتها عند هذا الحد ولكنها تبادر بتطبيق الفكرة وبديناميكيتها المعهودة في هذا المجال بالذات، فتجند الجماعات والمراكز العلمية والمؤسسات المتخصصة. وفوق هذا ـ كما أسلفنا ـ فهي تستغل أبناء هذه المنطقة سواء كان منهم المصابون بعقدة الخضوع للغالب أم تلك الجيوش من الطلبة الذين يتوجهون الى الجامعات الفرنسية والى غيرها ليعودوا في النهاية بأطروحات لا تكاد تختلف عن الكتابات الاستعمارية والاستشراقية سوى أنها أكثر حجة علينا بحكم أنها أقلام وطنية[1]. وهكذا، وبمثل هذه الطرق تعاد كتابة تاريخنا وتحت املاء الأوربيين أنفسهم، الذين نشكك في كتاباتهم ونتوقف عند هذا الحد، الا من رحم ربك!

قبل الشروع في مقارنة بعض قضايا تاريخ البلدين في الفترتين الحديثة والمعاصرة وكيف تناولها المؤرخون الفرنسيون، يليق بنا أن نتفق بادئ ذي بدء على عهود المقارنة. فإذا كان أحد هؤلاء المؤرخين أنفسهم وهو ستيفان غزال، يطلق على مؤرخي الفترة الممتدة بين 1830 و 1880 بالمدرسة الجزائرية القديمة، ويطلق الاستاذ سعد الله على نفس الفترة «عهد المؤرخين العسكريين»[2]. فإننا نطلق في هذا البحث «اسم المدرسة الاستعمارية القديمة» على كل الذين تناولوا تاريخ الجزائر والمغرب الأقصى منذ ما قبل 1830 الى مطلع الثمانينات وهو ما يناسب عهد احتلال تونس والاستعداد للمغرب، هذا فيما أبقينا تسمية «عهد المؤرخين الاختصاصيين»[3] على الفترة الموالية الى الثورة التحريرية في البلدين.

وقد رأينا أن نقف أولا على بعض كتاب كل فترة على حده مع ذكر ابرز المواضيع المعالجة وطرق معالجتها ووجهة نظرهم فيها.

(1) يكفيك أن تقف على المزيد من المعلومات في هذا الشأن بمجالستك لواحد من طلبتنا النزهاء. العائدين من فرنسا لكي تتأكد بنفسك من هذه الحقيقة.

(2) أبو القاسم سعد الله. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. ج 1. الشركة الوطنية للنشر والاشهار. الجزائر. 1978. ص: 17ـ19.

(3) كما أسماه الدكتور سعد الله.

اما بالنسبة للجزائر، خلال الفترة الاولى، فيمكن تمييز مرحلتين: مرحلة ما قبل الاحتلال (أي العهد العثماني) ومرحلة ما بعد الاحتلال الى غاية الثمانينات.

ففي خلال الفترة الأولى ، يمكن حصر المواضيع بصفة عامة في ثلاثة محاور ـ محور مدينة الجزائر، ويشتمل على كل ما يهم الأوروبيين من نشاطها كالتجارة و«القرصنة» فداء الأسرى ودفع الأتاوات والهدايا من طرف الدول وكذلك كل الأعمال العدائية من غارات وهجومات انتقامية وغيرها[1]

ـ المحور الثاني، هو محور حكومة الأيالة الجزائرية، ويشتمل على دراسات تتعلق بجهاز الحكومة ووضعية الأسطول وتنظيمات الجيش والعلاقات الخارجية لا سيما مع بقية أقاليم الامبراطورية العثمانية وافريقيا.

أما المحور الثالث فيتعلق بالكتابات التي تتناول أوضاع البلاد لكن من خلال الحملات الانتقامية للحكام الأتراك وكذلك الاعتداءات المتكررة لرجال البايليك فضلا عن الفوضى والاضطرابات التي كانت تعيشها المجموعات القبلية[2].

لم يكن أصحاب هذه الدراسات يعيشون الأحداث ولا هم يتفاعلون معها ولكن كانوا يتفرجون عليها ويسجلون منها ما كان يتماشى مع طباعهم الأوروبية ونظرتهم الخاصة الى الحياة، الأمر الذي ترك هذه الدراسات ـ سواء تعلق الأمر منها بالكتابات الفرنسية أم بغيرها من الكتابات الأوروبية الأخرى ـ لا تعكس بصدق وضعية البلاد وحالة السكان[3]. وأكثر من هذا أن المتتبع لمثل هذه الدراسات يكاد يسلم بأن هذه الحالة لا يمكن أن يوضع لها حدإلا بالتدخل الأوروبي المتمثل في الغزو الفرنسي[4].

(1) ناصر الدين. سعيدوني. الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، **الثقافة**، العدد 45، يوليو 1978. ص: 32.

هناك بحث في هذا المعنى وعن الفترة العثمانية للدكتور مولاي بلحميسي، «موقف المؤرخين الأجانب في تاريخ الجزائر» **الأصالة**، عدد 14ـ15، 1973.

(2) أنظر عن هذه المواضيع قائمة بعناوين الكتب: **سعيدوني**. ص : 30ـ31.

(3) نفس المصدر، ص 31.

(4) نفس المصدر، ص: 30

تلي هذه الفترة، فترة ما بعد 1830 ومن كتابها كاريت، وبيليسي دي رينو، وهانوتو، وديلاما روسلان وبروسلا روفورنيل ولاكروا وبيربروجر وغيرهم. وقد تناولوا تاريخ الجزائر الاقتصادي والسياسي والاداري وبخاصة التاريخ للاحتلال[1].

وفيما يتعلق بالمغرب الأقصى، يذكر «ليفي بروفانصال «بأن البلد لفت، خلال العصور الحديثة أنظار أوروبا الغربية أكثر من أي قطر من الأقطار الإسلامية الأخرى. ولم تلبث الطبقة المثقفة الأوروبية أن أخذت منذ القرن 17 م تتوق الى معرفة هذه الأرض القريبة من قارتهم[2].

وهكذا فقد قدر لعدد منهم الاقامة ببعض مدن المغرب وقراه، والتجول في بعض المناطق ومنهم التجار والقساوسة والرهبان وحتى من قدماء الأسرى فحداهم ولع بني قومهم الجديد من المواضيع الى تأليف رحلات وصفوا فيها ما شاهدوه من عادات وتقاليد استغربوها، وسجلوا ما سمعوه من أخبار وما عن لهم من ملاحظات[3]. ومن أمثال هؤلاء نذكر في القرن 16 م و17م و18م: «دبيقودوطوريس (1535)، ليون الافريقي ومواط (1683)، وبيدودوسانت أولان (1694)، والقسيس بيسنو (1714) وبرايتويت (1729) وشني (1787)[4] ويكفي القول بأن قسما كبيرا من هذه المؤلفات وأمثالها كثير، موجودة في بيبليوغرافية «بليفار» و«براون» وهي ان دلت على شيء فأنما تدل على ما كانت توليه أوروبا من العناية بشؤون المغرب الأقصى[5].

لم يكن المغرب كبلد مستقل عن الدولة العثمانية في نظر الفرنسيين يمتاز بأية

(1) سعد الله، ص: 20ـ21.

(2) ليفي، بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، ترجمة عبد القادر الخلادي، دار المغرب، الرباط، 1977، ص: 17.

(3) نفس المصدر، ص. 17.

(4) Diego de Torres, Lon l'Africain, Movette, Pidou de Saint Olon, Le P.Busnot, Braitwait, Chenier

(5) نفس المصدر، ص: 17. وكذلك:
-- A. LAHJOMRI, L'image du Maroc dans la litterature Française (de Loti à Mautherlant) SNED, Alger, 1973.

خصائص تميزه عن سواه من الدول المجاورة ، وهو يدخل عادة تحت مصطلح الشرق كما أسلفنا.

لقد كان احتلال مدينة الجزائر التي تتوسط شمال افريقيا دليلا ماديا على ما كانت توليه فرنسا بالخصوص من أهمية تجاه المنطقة ككل.

تبدأ اذن الأبحاث التاريخية ـ التي من شأنها أن تجلي الغموض وتمهد المغرب وتعده. وسيرا في هذا الاتجاه وتبريرا للغزو ، نجد الفرنسيين يصورون شعوب الشرق وضمنها شعوب هذه المنطقة على أنهم بدائيون ، غلظهم الاسلام مما أدى بالغرب الى التفكير في ادخالهم في دائرة الحضارة الغربية والإيمان الصحيح[1].

لقد نادى بالفعل كتاب أمثال «شاطوبريان» و«لامارتين» ، و«فيبي» و«هيجو» ـ مع بعض الفروق ـ نادوا بضرورة القيام بعمل حضاري تجاه الشرق ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا يهدفون ـ كغيرهم من كتاب وشعراء ، وفلاسفة ومؤرخين ـ سوى الى جر الرأي العام والضمير الفرنسي نحو أوهام لتبرير عملية الغزو[2].

كان لاصطدام الفرنسيين بالمغرب في حرب «ايسلي» عام 1844 وتحطيم اسطورة الامبراطورية التي لا تغلب ، ازدياد اهتمام أكثر به. وقد راحوا يركزون في كتاباتهم على أسطورة النزاع بين «السلطة المركزية وجهازها: المخزن من جهة، وبين «الرعية» المؤطرة ضمن قوالب قبلية ودينية: العصبية القبلة والطرق الصوفية من جهة أخرى»[3]. انها بعبارة أخرى كتابات حول «تاريخ انقسام المغرب الى «بلاد المخزن» و«بلاد السيبة» الى مناطق خاضعة للسلطة المركزية ومناطق متمردة ثائرة بزعامة رجال القبائل ومشايخ الطرق الصوفية[4].

وقد شككوا في شرعية السلطة وفي قدرتها على حكم البلاد فقالوا «بحتمية سقوطها لأن العرب ـ على حد زعمهم ـ كانوا وسيظلون عاجزين عن المحافظة على

---

(1) LAHJOMRI p. 48.

(2) LAHJOMRI p. 46.

(3) محمد عابد الجابري وآخرون. **الانتلجانسيا في المغرب العربي. «تطور الانتلجانسيا المغربية الأصالة والتحديث في المغرب»**. دار الحداثة. بيروت. 1984. ص: 9.

(4) نفس المصدر. ص: 9

تنظيم سياسي لان الفوضى تبدو وكأنها عامل طبيعي في حياتهم»[1]. يبقى ما الذي جعل الفرنسيين ينتظرون القرن 19 لاحتلال المنطقة؟ وما الذي أخّر احتلال المغرب الى عام 1912 م. ما دام الأمر كذلك في اعتقادهم؟

يبدأ مع الثمانينات اذن، عهد جديد في كتابة تاريخ الجزائر وكذلك المغرب الأقصى لاعتبارات عديدة منها، صدور قانون بانشاء المدارس العليا التي كانت نواة لجامعة الجزائر وكان من بينها، مدرسة الآداب العليا التي فتحت مجال التدريس والبحث في تاريخ المغرب العربي وافريقيا. وقد عرفت هذه الفترة في بدايتها زيادة حدة التنافس على ما تبقى من أقطار شمال افريقيا وبداية الترتيبات لاستكمال احتلالها[2].

وقد امتاز كتاب هذه الفترة بالتخصص ـ كما أسلفنا ـ ولما كانت أبحاثهم تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية وتبرير الوجود الفرنسي في الجزائر ثم في المغرب، فقد قدمت للأساتذة عدة تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية سواء أكان ذلك أثناء التدريس أم أثناء جمعهم لمادة أبحاثهم[3].

وهكذا برز عدة أساتذة خلال الفترة ، أمثال مارسي، وريني باسي، ودوتي، وجورج ايفر، واسكيرا، وماسون، ومارسيل أميريت، وياكونو، فضلا عن عدد آخر من المهتمين بتاريخ شمال افريقية في فرنسا نفسها أمثال جوليان ومانصو وكانياوديل[4].

وكانت المواضيع المعالجة متنوعة فهناك الدراسات اللغوية واللهجات المحلية، وهناك الأبحاث الاجتماعية وتاريخ افريقيا القديم وكذلك النواحي الاجتماعية والاقتصادية للأهالي خلال العهد الفرنسي وقضايا الاستعمار والمكاتب العربية ونشر

---

(1) LAHJOMRI p. 100

(2) سعد الله. ص: 24.

(3) نفس المصدر. ص: 24.
ساعدهم في هذه المهام انشاء لجان ومصالح مختصة . أنظر : نفس المصدر. ص: 25.

(4) نفس المصدر. ص: 24ـ25.
وكذلك سعيدوني. ص: 35.

المراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسي [1].

وقد تعززت هذه الدراسات باعطاء الاشارة لتشجيع الدراسات الاسلامية في مطلع القرن العشرين [2].

ومع «الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون وقاموا بوضع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار في الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية، وهذا في ظل نظرة نقدية شاملة لما تحقق في ميدان الكتابة التاريخية حتى هذا العهد» [3].

وقد صدرت مقالات بين الثلاثينات والخمسينات من القرن العشرين تعبر عن تقييم جهود المؤرخين الفرنسيين وعن مدى تقدم الكتابة التاريخية كمقالة «مارسي» [4] وايفر [5] وياكونو [6].

وإذا كانت الدراسات التي قام بها المؤرخون الفرنسيون تشتمل على تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار فان مايؤاخذون عليه هو عدم تعرضهم لتطور المجتمع الجزائري وسياسة بلادهم نحو الجزائريين [7]

وكان الأمر في الجزائر يختلف عنه في المغرب الأقصى أو يكاد فالمصادر المغربية كانت متوفرة ولم تتعرض لمثل ما تعرضت له الوثائق في الجزائر بعد الاحتلال. كما أن اهتمام المؤرخين الفرنسيين بدأ ينصب على هذه الوثائق ولو بتردد.

وكان للسيد «هوداس» Hodais فضل الاسبقية في التعريف بكتب التاريخ الحديث المغربية لدى المؤرخين الأوروبيين من ذلك أنه قام عام 1886 بنشر

(1) أمثال كلوزيل، وروفيقو، وفوارول، وديرلون، وآثار بوتان.

(2) أنظر سعد الله، ص: 25. أثمرت هذه الجهود بصدور مجموعة المائة سنة وهي تشمل ميادين التاريخ والآثار والجغرافية والفنون وغيرها.

(3) نفس المصدر، ص: 25.

(4) W. MARÇAIS, Un siècle de Recherches sur le passé de l'Afrique Musulmane, un Histoire et Historien de l'Algrie, Paris 1931.

(5) G. Yver, La conquête et la Colonisation de l'Algrie, Paris, 1931.

(6) X. YACONO, L'Algrie depuis 1830, in R. LETOURNEAU, vingt cinq ans d'histoire Algrien: Recherche et publication 1931--1856.

(7) سعد الله، ص: 27.

فصول من كتاب الزياني تتعلق بتاريخ الدولة العلوية وألحقها بترجمتها الى اللغة الفرنسية، وفي خلال سنتي 1888 و 1889 ، نشر تاريخ الدولة السعدية للأفراني مع الترجمة كذلك، ثم كتاب تاريخ السودان وتذكرة النسيان [1].

ولما كان الفرنسيون يمهدون لفرض سيطرتهم على المغرب فقد كانت طائفة من رجالاتهم في المدن الجزائرية ولا سيما في تلمسان على اتصال مستمر بالأوساط الثقافية المغربية وعلى علم بما كان يروج فيها من كتب الشيء الذي يسر لبعض المستشرقين الحصول على نسخ من المصنفات العربية المطبوعة بفاس. ومن هذه الطائفة لاكور » (Cour)، الذي كان في طليعة من استفادوا مما كانت تخرجه المطبعة الفاسية من الكتب [2]. الخاصة بتراجم أهل العلم والصلاح [3].

وقد أثمرت جهود «كور» بتأليف كتاب:

«تاريخ استقرار الدولتين التركية بالآيالة الجزائرية وذكر ما كان بينهما وبين الدولة التركية بالآيالة الجزائرية من خلافات» [4]. ويعد الكتاب من بواكير الدراسات المتعلقة بالدولتين الشريفتين المذكورتين التي اعتمد فيها على مصادر أوروبية ومصادر مغربية عربية.

(1) مفيدان من ناحية الاتصالات التي كانت بين المغرب والقارة الافريقية. أنظر: بروفنصال. ص: 19.

(2) تعود المطبعة في المغرب الى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن. ولقد جلبها تركي من القاهرة. ثم اشتراها السلطان وأجرها له مع مجموعة من مساعديه. أنظر:

-- A PERETIE, «Les Madrasas de Fes», Archives Marocaines t. 18, 1912, p. 363.

-- R. LETOURNEAU, La Vie Quotidienne à Fes en 1900, S.L., 1965, p. 170.

ـ عبد الله. كنون. **النبوغ المغربي في الأدب العربي**. ط 2. دار الكتاب اللبناني. بيروت 1961. ص: 280.

(3) انظر بهذا الصدد قائمة ببعض الكتب الصادرة عن المطبعة.

ـ محمد المنوني. **مظاهر يقظة المغرب الحديث**. الجزء الأول. مطبعة الرباط. 1973. ص: 220ـ223.

وكذلك عبد الرحمن بن زيدان. **الدار الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**. الرباط. 1937. ص: 105ـ106.

(4) A. COUR, L'tablissement des dynasties de cherif du Maroc et leur rivalite avec les Turcs de la regence d'Alger, 1509--1830.

ولما طبع بمصر كتاب الاستقصاء عام 1895 (1312 هـ) تسنى للمؤرخين الأجانب أن يستفيدوا منه ولا سيما بعد أن ترجم الاستاذ Fumey الى الفرنسية القسم الخاص بالدولة العلوية، وأشرف على نشره بمجلة «المستندات المغربية»[1].

بقي اذن، تاريخ المغرب الحديث كتاريخ الجزائر ـ الى أواخر القرن 19 م مبنيا على ما ورد في الوثائق الأوروبية. الا أنه في الوقت الذي بدأ محتوى تاريخ المغرب ينمو ويثرى بمعلومات دقيقة وردت في غضون كتب مغربية نقلت الى لغات عربية أو استقاها مؤرخون مستعربون من مؤلفات تم اخراجها في مطابع فاس الحجرية العتيقة[2] بقي تاريخ الجزائر الحديث أوكاد، على ما كان عليه يعتمد فيه على المصادر الأوروبية.

يذكر «ليفي بروفنسال» إنه تجلى بفرنسا، منذ القرن 20 الميلادي، أن كتابة ذلك التاريخ يتوقف على دراسة وثائق جديدة سواء منها الموجودة في المظان المغربية أو المحفوظة ضمن مجموعات المستندات الغربية في مختلف البلدان الأوروبية[3].

وإذا كان بروفنصال صادقا في توفر ارادة الفرنسيين في استغلال الوثائق الأوربية فان اهتمامهم بالمضمان المغربية تكذبه الإرادة الفرنسية على أرض الواقع، وخير دليل على ذلك السيد «مارتان» صاحب كتاب :

Quatre siècles d'histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902 – au Maroc de 1894 à 1912. (4)

المعتمد فيه على وثائق أهلية، مما حمل السلطات الفرنسية على محاكمته وسجنه ثم تبرئته في النهاية وكان ذنبه الوحيد هو اعتماده على وثائق أهلية كان من نتائجها الوصول الى حقائق تاريخية تتناقض تماما مع ما كانت تدعيه فرنسا من حقوق في الصحراء.

وقد أشار بروفنصال الى الصعوبات التي يتلقاها الباحث عن المصادر العربية

(1) Les Archives Marocaines.
(2) نفس المصدر، ص: 20.
(3) نفس المصدر، ص: 20.

(4) A.G.P. Martin, Quatre siècle d'Histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1902,d'après archives et document Indigene, Paris, 1923.

في المغرب مذكرا ـ في نفس الوقت ـ بأن أرض المغرب ـ بالنسبة للمولع بالكتب ـ أرض غنية بالورود ولكنها مفروشة بالحصي»[1]. ومع ذلك فقد حث على المضي قدما لتحقيق هذه الغاية قائلا: «كيف ما كان الأمر فلا نرى داعيا للتخلي عن بذل الجهود، وعن التذرع بالصبر لجمع الوثائق، سيما وأننا على يقين أنها موجودة، وجد مفيدة، وان استجلاء ما تشتمل عليه من حقائق عمل ضروري لسد ما يتسم به التاريخ المغربي الحديث من ثغرات»[2].

وفي الوقت الذي نوه فيه بما قام به «هنري دوكاستري» من نشر وتحقيق للوثائق الخاصة بتاريخ المغرب المودعة في دور المحفوظات الأوروبية[3] فانه يرى، بأن هذه الوثائق لم تمدنا الا نادرا بمعلومات أصلية غير معروفة بالنسبة للتاريخ الخاص بالأحداث الداخلية للمغرب الأقصى. ويخلص الى: «أن تاريخ المغرب الحديث المستقاة عناصره من تلك الوثائق ـ يعني الأوروبية ـ لن يكون ذا شأن الا اذا استغلت أيضا لبنائه جميع المصادر العربية ولا شك في وجودها»[4]. وهذه المصادر هي التي عزم بروفنصال نفسه على دراسة بعض منها في مؤلفه «مؤرخو الشرفاء» والذي اشتمل على التعريف بكتب التراجم، خاصة باعتبار أن أصحابها شاركوا الأخباريين في التعريب بتاريخ الدولتين السعدية والعلوية المغربيتين.

وقد تضافرت جهود المؤرخين الفرنسيين حول كتابة تاريخ شمال افريقيا. فكان بعض التراجمة والباحثين قد تدربوا في الجزائر وأصبحوا عاملين في تونس والمغرب الأقصى. وترجمت هذه الجهود عام 1935 بميلاد اتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية التي صارت تجتمع كل سنة في احدى مدن المغرب العربي لتنسق جهودها وتتذاكر في خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقي ذلك خلال الأبحاث

(1) بروفنصال، ص: 20.
(2) نفس المصدر، ص: 20
(3) HENRY DE CASTRIES, Les Sources indites de l'histoire du Maroc.
(4) بروفنصال، ص: 22.

والدراسات»[1]

بقي لنا، بعد هذا السرد السطحي للتطور التاريخي للكتابات الفرنسية عن تاريخ البلدين، أن نقوم بمقارنة بعض مواقف هؤلاء المؤرخين من بعض قضايا تاريخ البلدين.

وقد رأينا أن نصدّر هذه النقطة من البحث برأيين يلتقيان تقريبا في الحكم على هذه الدراسات بحيث التقائهما في ميدان البحث العلمي.

فهذا السيد ليفي بروفنصال يقول:

«لا شك أن أغلبية مؤلفي تلك الكتب اتخذوا لها عناوين توهم غلطا أنها تتضمن عروضا لأطوار تاريخ المغرب، ولا شك كذلك أن طائفة منهم استقوا، مدة اقامتهم بالمغرب، معلومات تاريخية عن هذه البلاد أما بطريقة السماع المباشر، وأما بنقل ما ورد في كتب من تقدمهم من الغربيين الا أنه لا يوجد من بينهم فيما نعلم، أحد استفاد من مصادر مغربية مؤلفة باللغة العربية»[2].

وهذا الأستاذ سعد الله يقول:

«... تعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد (أي عهد المؤرخين الاختصاصيين) مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحي في سبيل ذلك بقيم البحث وأخلاق العلم، ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتأريخ له. وتعمل في النهاية على انجاحه واستمراره»[3]. ويضيف قائلا:

«رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الأهلية فأنهم كثيرا ما شككوا في قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها...»[4]

يتضح ـ مما سبق ـ أن تناول الكتابات الفرنسية لتاريخ البلدين تشترك في موقفها المعادي للمصادر الأهلية، ومن هنا فالمادة التاريخية التي استعملها الكتاب

(1) سعد الله، ص: 24.
(2) بروفنصال، ص: 18.
(3) سعد الله، ص: 23.
(4) نفس المصدر، ص: 27.

الفرنسيون لم تكن تتجاوز في أغلب الأحيان المصادر المغربية والأرشيفات الأوروبية. ففيما ظلت مخطوطات المكتبات المحلية بالجزائر وتركيا مهملة[1] وكذلك الشأن بالنسبة للمخطوطات المغربية المتوزعة بين الخزائن الملكية والاسكريال والخزانة الوطنية بمدريد ودار الكتب الوطنية بتونس ودار الكتب الظاهرة بدمشق[2]. فضلا عن مخطوطات القرويين وغيرها كثير مما هو بحوزة البيوتات والأفراد.

بقيت الدراسات التاريخية الفرنسية عن المنطقة ـ على الأقل الى مطلع القرن 20 ـ تكرر في أحيان كثيرة ما نقل عبر أجيال عن المؤلفين[3].

ولعل من عوامل اهمال المصادر الأهلية، محاولة الحكام العسكريين التعرف على واقع البلاد من خلال المشاهدة والملاحظة ومن خلال عدم تكليف الكتاب ذوي الاختصاص أنفسهم مشقة الترجمة هذا من جهة ومن جهة ثانية لأن اللغة العربية نفسها لم تكن أداة تاريخ عندهم. ولعلنا لا نجد ما يبرر هذا الموقف سوى في معاداتهم للغة العربية منذ بداية الاحتلال لذلك لا نستغرب ان لم يستعمل المؤرخون الفرنسيون في الجزائر اللغة العربية في مصادرهم على حد تعبير الاستاذ سعد الله[4].

وكان الاسلام من المواضيع التي وقفوا منها موقفا مشبوها سواء من خلال نعتهم له «بالاسلام الجزائري» أو «الاسلام المغربي» أو بالتشكيك في عقيدة وممارسة أهله له[5].

أما المقاومة، فهم لا يعيدونها الى الروح الوطنية والنفور من حكم الأجنبي ولكن لضيق الأفق والتعصب الديني على حد زعمهم[6].

ولما كانت جل المواضيع المطروقة ـ الخاصة بالأهالي ـ تهدف الى استئصال كل جذور المقاومة فان زعماء المقاومة نفسها خصوا بدراسات لا تخرج في أغلبها عن

(1) سعيدوني، ص: 28.
(2) الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، **الكتاب المغربي**، **مجلة بيبليوغرافية نقدية**، العدد الأول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، مارس 1983، ص: 114.
(3) LAHJOMRI p, 150.
(4) سعد الله، ص: 32.
(5) نفس المصدر، ص: 29.
(6) نفس المصدر، ص: 29.

الحط من دورهم الوطني كما فعلوا مع أبطال المقاومة الجزائرية وعلى رأسهم الأمير عبد القادر، وزعماء المقاومة المغربية وعلى رأسهم الأمير عبد الكريم الخطابي.

حاول الكتاب الفرنسيون في الجزائر كما في المغرب الأقصى، وفي اطار تفتيت المجتمع وضربه من الداخل ، حاولوا التركيز على أن المجتمع غير منسجم اذ يتشكل من عناصر عربية وأخرى بربرية كما حاولوا أن يصوروا العنصر العربي على أنه متسلط على العنصر البربري وقد ذهبوا في المغرب الى أبعد حد عندما أصدروا عام 1930 ما يسمى بالظهير البربري الذي كان يرمي الى «عزل العنصر **البربري** في المغرب عن الحقل المعرفي والايديولوجي العربي الاسلامي وربطه بفرنسا ربطا عضويا، لغة وثقافة ولربما دينا أيضا ليضمنوا بذلك بقاء الوجود الفرنسي بالمغرب»[1].

وقد جمع «أحمد بناني» هذه المعاني والصور للكتابات التاريخية الفرنسية حين قال: «ان الباحثين الأوروبيين ابتلينا بهم على عهد الحماية فكان عدد منهم يمتازون باستنتاجات فارغة أثناء أبحاث ظاهرها علمي بيد أنها ترمي في الواقع الى الحط من كرامتنا وماضينا وحاضرنا، وحملنا على الامتعاض من ديننا وتقاليدنا وقوميتنا واحتقار تاريخنا وابرازه في صورة تجعلنا أهلا لأن نستعمر، وتدعي أن الحماية أخرجتنا من العدم الى الوجود»[2]

وفي الأخير ، اذا كان لا جدال حول الأهمية الوثائقية التي تكتسيها المصادر المحلية العربية الاسلامية، فإن هذه بالذات نقطة ضعف كبيرة تسجل للكتابات الفرنسية المتناولة لتاريخ البلدين ، وقد أدى رفضهم لهذه المصادر الى رفض الحقيقة التاريخية ومعاداة الرؤية السليمة للتاريخ وتجاهل الطرف الذي يكتبون عنه.

وقد أدّى اقتصارهم ـ في كثير من الأحيان ـ على الوثائق الأوروبية عن المنطقة، إلى وصف العهود التي لا تتوفر لهم عنها وثائقهم «بالعهود الغامضة» وتعود سلبيات التناول في بعض جوانبها الى كونهم يصنعون الفكرة المسبقة ثم يجمعون لها

(1) محمد العابد الجابري وآخرون، **الأنتلجانسيا في المغرب العربي**، «**تطور الانتلجانسيا المغربية**، الأصالة والتحديث في المغرب ـ دار الحداثة بيروت، 1984، ص 34.

(2) عبد الله الجراري، **التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 الى 1972**، ط 1، مكتبة المعارف، الرباط، 1985، ص: 25.

المادة التاريخية مما أدى الى أن أصبحت نتائج أبحاثهم تقوم على الأحكام المسبقة أحيانا وعلى الأوهام أحيانا أخرى. وهذا ما جعل دراساتهم تنحط في بعض الأحوال الى مستوى الدعاية[1].

لكن هذا لا ينفي وجود بعض الكتابات الموضوعية ، بل هناك أحيانا جهود قام بها علماء اجتماع من أجل تحرير الضمير الفرنسي، واخراج الاستشراق أيضا من حلقته المفرغة، لكن هذه المحاولات الأخيرة عزلت وفشلت أمام الضمير الفرنسي الأعمى عندما يتعلق الأمر بقضايا التاريخ[2].

وقبل أن نختم الموضوع، لا بد أن نشير الى نقطتين:

الأولى: هي أن هذه الكتابات التاريخية مع كونها لا تخلو من تحيز ومن حشو فلا يمكن أن نعتبرها عديمة الفائدة خصوصا في موضوع علاقات البلدين بالدول الأوروبية وفرنسا على وجه التحديد.

الثانية: هي تلمسنا لمدى أهمية الوثائق على العموم والأرشيفات والوثائق المحلية على وجه الخصوص في اعادة النظر في كتابة تاريخ المنطقة ، ومن هنا ضرورة التعريف بها.

وحسبنا أن المغاربة متقدمون عنا في هذا المجال اذ في الوقت الذي طالبوا فيه بإلحاح باستعمال وثائقهم، شرعوا في استغلالها فعلا بفتح المراكز المختلفة التي يتردد عليها البحاثة وبجلب بعض الوثائق الأوروبية أيضا ولو عن طريق تصويرها. ومما لاحظناه خلال زيارتنا في السنتين الماضيتين للمغرب صدور حوالي ستة أعداد بعنوان «الوثائق» كما أن هناك جمعية مغربية نشيطة مهمتها التأليف والترجمة والنشر وهي فضلا عن ذلك تصدر مجلة ببليوغرافية للكتاب المغربي منذ سنة 1982، تقوم من خلالها بعملية جرد كل ما صدر عن المغرب من مؤلفات ودراسات في مختلف التخصصات سواء كان ذلك في المغرب أم خارجه ـ وتعرف بها.

هذا ولا يفوتنا التذكير بأنه اذا لم نهتم بتاريخنا فليس في وسعنا أن نرغم الغير

(1) سعيدوني. ص: 32.

(2) LAHJOMRI, p. 12

على العزوف عن الكتابة عنا. ونخشى أن يكون هذا الغير هم أبناء أولئك الذين جمعونا حول كتاباتهم في هذا الملتقى.

ان القضية اليوم، قضية عزيمة وإرادة وصبر على الصراع والدفاع عن أنفسنا وفرض وجودنا لا غير.

آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان

يوسف مناصرية

كثير هم الفرنسيون الذين تناولوا تاريخ الجزائر في جميع عصوره وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية. ويضيق المجال هنا لذكر أسمائهم، وللراغب في التعرف على هذه الكتابات العودة إلى الدراسات البيبليوغرافية التي وضعها بعض الفرنسيين مثل دراسة: كريستيان كورتوا (من روما إلى الإسلام) وويليام مارسي (مائة سنة من البحث في ماضي افريقيا الإسلامية)، وجورج ايفير (غزو واحتلال الجزائر)، وجزافيي ياكونو (الجزائر منذ 1830)، وشارل (تيار الجزائر في الأدب الفرنسي)، والبيبليوغرافية العسكرية، والبيبليوغرافية التي وضعها الكاتب بليفر[1].

ونحن اذ نتناول احدى هذه الكتابات الفرنسية بالدراسة والنقد، فقد سبقنا الى ذلك بعض المؤرخين الجزائريين نذكر من بينهم الدكتور أبو القاسم سعد الله (منهج الفرنسيين)، وناصر الدين سعيدوني (الكتابات التاريخية) ومولاي بلحميسي (موقف المؤرخين الأجانب)، ومحمد الميلي (موقف المؤرخين الأجانب)[2].

غير أن هؤلاء الكتاب قد اقتصرت كتاباتهم على مؤرخي القرن التاسع عشر والفترة العثمانية على الخصوص. أما دراستنا فستقتصر على كاتب واحد وهو الفرنسي جون كلود فاتان الذي يعتبر من الكتاب الفرنسيين المختصين في علم السلالات